العرب
السبت 2020/02/08
السنة 42 العدد 11611

موسيقي يتاجر بالتهريب وعامل يعتقل لإخفائه قيثارة

محمد الأصفر في «علبة السعادة» يؤرخ بالكتابة ويدين الحرب ويستعيض عنها بالموسيقى

علاقة الرواية بالتاريخ واحدة من الإشكالية النقدية، التي ما زال الكلام عنها مفتوحا على مصراعيه، وقابلا لكافة الأطروحات والرؤى السجالية، وهو ما دفع الناقد عبدالله إبراهيم إلى القول بالتخييل التاريخي، كنوع من تجاوز السردية التاريخية ليشكل الأنواع الأدبية وحدودها ووظائفها، في مسعى لتفكيك ثنائية الرواية والتاريخ، ويعيد دمجهما في هوية سردية.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

رواية الكاتب الليبي محمد الأصفر "علبة السعادة" ليست رواية تاريخية بالمعنى الكلاسيكي، ولكن التاريخ حاضر فيها بطرائق شتى، فالواقع الذي تنقله ما هو إلا صدى لأفعال الدكتاتورية.

وترصد الرواية لفترة مهمة من تاريخ ليبيا وصراعها مع جارتيها خلال حقبة الثمانينات والتسعينات، وهيمنة فكر وسياسة الكتاب الأخضر في مناحي الحياة. فتتوقف الرواية عند الحكم الشمولي في ليبيا، الذي كان في ذروة عنفوانه، حيث الدولة بمثابة الأخ الكبير تقوم بكل شيء نيابة عن الشعب فـ"الاستيراد يتم عن طريق الدولة فقط، ولا توجد متاجر قطاع خاص".

لحن الرماد

تبدأ الرواية، الصادرة مؤخرا عن منشورات إبييدي، بمشهد ترويه ريتا، الفتاة الإيطالية للمبروك الشاب الليبي الذي جاء ليلتقط رزقه ببضاعة يبيعها في السوق الليبية، التي تيبست بفعل منتجات تفرضها الدولة/ الأب (السلطوية)، قبل عودته إلى وطنه، عن محرقة الألحان التي نقلها التلفزيون؛ امتثالا للقرارات الثورية، وتنتهي الرواية بمشهد الهجوم على الحفل الغنائي في ألمانيا، من شباب "خليط هائج من حليقي الرؤوس"، فمنهم "ملتحون على رؤوسهم عمامات وفي وسطهم أحزمة بها خناجر ملتوية، ومعهم آخرون يرتدون أقنعة بها قرون كقرون الشيطان..." وغيرهم من مختلفي الهويات والأيديولوجات.

> تقدم الرواية واقعا كابوسيا، لكن فيه بصيص أمل يمرره الراوي ويدعو إليه، يتمثل في المقاومة والنضال

في مشهد كاشف لحالة العنف والكراهية التي يكنها أعداء الجمال، وكأنهم اتحدوا ليستبدلوا نداء لهم "يا أعداء الجمال اتحدوا" بشعار "يا عمال العالم اتحدوا"، وهو ما يشير إلى معنى مهم يفيد بأن أعداء الجمال والحب والسلام، ليسوا حكرا على أيديولوجيا معينة كما سعى الغرب إلى الترويج لها؛ بل القبح الداخلي والكراهية التي تصل إلى حد العنف، هي نزعة أهل الشر في كل الطوائف.

تسرد الرواية وقائع القهر والمعاناة التي عانى منها بطلا الرواية الإشكاليان، المبروك وعبدالوهاب؛ الأول درس الموسيقي وعمل مدرسا، وكان بين الحين والآخر يتاجر في البضائع المهربة، وتزوج من غزالة، لا أحلام له إلا العزف وأن يعيش هادئا، لكن "يقحم في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل ولا نعامة".

أما عبدالوهاب فهو إنسان بسيط ثقافته محدودة، لم يكمل تعليمه. ظروفه العائلية السيئة أجبرته على الانخراط في سوق العمل اليدوي، فقد عمل طباخا ثم سائقا، يعتقل لمدة عامين لأنه أخفى قيثارة.

وبينما الرواية تسرد مأساة الشخصيتين، تجتر واقعا مزريا عاشه الليبيون تحت مظلة حكم أيديولوجيا الكتاب الأخضر؛ (اقتصاديا: الفقر، وركود الأسواق. سياسيا: غياب الحرية، وهيمنة الفكر الواحد، وجعل الجميع يتجسس لـ"خدمة الوطن والقائد من خلال العمل الأمني"، وثقافيا: هيمنة الموسيقى الرجعية، ومعاداة الغربية). وإن كانت تتقاطع مع حكاية الشخصيتيْن الرئيستيْن حكايات من أماكن مختلفة (تشاد، ألمانيا) على نحو حكاية زمزم وابنتها قمر اللتين التقاهما المبروك وهو أسير في تشاد.

وعبر حكاية هذه الأسرة التشادية التي ألفها المبروك، وعاملته كأخ وليس كأسير، يقدم صورة للوجه الحقيقي للإنسانية، الرافضة لسياسات العنف والقهر التي تنتهجها السلطات الدكتاتورية، دون فرق بين دكتاتور شرقي وآخر غربي، فالجميع أوقعوا شعوبهم في أتون الحروب، التي دمرت وشتتت الجميع كما حدث لأسرة الضابط إبراهيم "وجعلتهم قوما رحلا".

في الحقيقة تتسرب داخل الرواية، بخفة ورشاقة دون تبني حمولات أيديولوجية أو شعارات زاعقة، الكثير من أفكار الماركسية، خاصة آراء كارل ماركس الذي تعشقه كرستينا، ويلبي لها عبدالوهاب طلبا بزيارة مدينته "كمينتس" وقام بعزفه لحن أزهار الكرز محببة لها، فهي تؤمن بمبادئ الشيوعية إيمانا كاملا، وتطبقها في حياتها وفي خطابها.

سردية العنف

تبدو الرواية في أحد أوجهها سردية مضادة لسردية العنف الذي يحمل ويلاتها الجميع بلا استثناء سواء بالإيذاء البدني أو القمع، كما صورها عبدالوهاب وهو يحكي عما تجرعه المساجين اليساريون داخل أقبية السجون، إلى أن لاح "الصبح، فلا السجن والسجان باق" كما غنى محمد وردي. أو تلك التي تعرضت لها أسرة كرستينا فشعرت؛ وكأنها لاجئة في ألمانيا الشرقية.

ومع كل هذا الدمار والخراب الذي حاق بالجميع، بسبب السياسة التي هي رديف للعنف عند ميلز، وفايبر وماركس، ومع هذا فالرواية لا تتبنى رأي ماركس في أن السياسة هي الحكم بالعنف، بعد أن كانت عند أفلاطون هي بمثابة حل للعنف. فالكاتب يتماهى مع آراء نيتشه وحنة أرندت في عدم تفعيل العنف، ودعوتهما إلى الرجل الجديد أو القوي، فكل أبطال الرواية بعد أن خرجوا مجروحين، التمسوا طريقا آخر بعيدا عن العنف، سعوا إلى التغيير والسلام بالورود، وفقا لدعوة روت وهي تستقبل السياح من كل بلدان العالم بالزهور فكما تقول "الزهور جمعتنا، والزهور وحدها ستحقق السلام في العالم".

الرواية قائمة على المراوحة على مستوى أماكن الداخل والخارج، أو الرغبة في السلام في مقابل العنف وإكراهات الدكتاتوريين، أو على مستوى اللغة التي تراوح بين اللغة الفصيحة واللغة المحلية بكل جمالياتها وحمولاتها، وكأن محمد الأصفر يسعى للتوثيق حيث حملها أمثاله وأغاني شعبية وكلمات محلية وغيرها. أو تلك التي يتبادلها الراوي/ الأنا مع الراوي/ الغائب ومرة الأنا مع أناته بتحويلها إلى أنا مبعدة منفصلة وكأنها غير "أنت".

أيضا ثمة مراوحة بين أماكن رحبة كالميادين والغابات التي مارس فيها المبروك نزقه مع ريتا الإيطالية، وعبدالوهاب مع كرستينا، وأماكن ضيقة منقبضة كالسجن في حالة عبدالوهاب، الذي ألقي عليه القبض بسبب القيثارة، والأسر كما عاشه المبروك في تشاد؛ في الأماكن المفتوحة تسود أجواء الموسيقى والغناء والحب، وفي الأماكن المقبضة تكبس ريح الحرب والموت والقيود والتعذيب واللاآدمية.

ثمة مراوحة أخرى بين المتخيل والواقعي أو المرجعي، ليس فقط على مستوى شخصية المؤلف الحقيقية والمبروك إحدى الشخصيات الرئيسية، وإنما في استحضار الشخصيات الحقيقية مثل: كارل ماركس ومشهد تدشين تمثاله في مدينة كمينتس، وبيتهوفن وبيته وغرفة الموسيقى، وأحمد فكرون وأغانيه، والصادق النيهوم. وأحمد إبراهيم وزير التعليم في عهد القذافي، ومواقفه ضد الطلاب. وتوظيف هذه الشخصيات الحقيقية في الحكاية وكأنها جزء من حكاية متخيلة.

تؤكد الرواية على معنى مهم، بأن المعارضة ليست خائنة، بل هي وطنية، فعندما حدثت الغارة الأميركية على الأراضي الليبية بسبب تفجير أحد الملاهي في برلين، لم يظهر المعارضون (وهم في المعتقلات) شماتة في الدولة، بل هاج المساجين وتمنوا أن يكونوا في طليعة الصفوف ليحاربوا.

ويستمر هذا الواقع الكابوسي، لكن ثمة بصيص أمل يمرره الراوي ويدعو إليه يتمثل في المقاومة والنضال، حيث راح الشعب يناضل للتحايل على عفن الدكتاتورية "بالكرة والبحر والغناء"، مثلما يدعو إلى أن تعم ثقافة السلام.

شخصيات في بيئة تراجيدية (لوحة للفنان معتوق بوراوي)

عندما يتمرد الكاتب القصصي يضع «نظارات الخائن»!

الرباط – عن صراع لا يهدأ بين وطن يسكن القلب ومهجر يأسر الجسد يسرد الكاتب المغربي محمد مسعاد "محكيات" يلملم فيها شتات ذات أثخنتها جراح البحث عن الهوية بين الدار البيضاء وألمانيا ويطرح أسئلة حائرة عن الذات والآخر.

ويأتي كتاب "نظارات الخائن" الصادر عن دار الدراويش للنشر والترجمة في 162 صفحة من القطع المتوسط مغرّدا خارج التصنيف المألوف للكتابة فهو عابر لفنون القصة والرواية والسيرة الذاتية.

ويكشف فيه مسعاد عن عشقه الأبدي لأزمنة وأماكن سكنها مقيما وسكنته في رحلة هجرة عشرين سنة من خلال شخوص تشكل مرآة يرى فيها القارئ صورة المغرب بعيون مغربية مهاجرة.

عن كتابه قال مسعاد "هو دعوة للتفكير في أدب الهجرة والتنقل السلس بين المكان والزمان، إنها محكيات بوح للأسرار وإفشاء عن تلك الروح التجانسية السردية، التي تقدّم الوقائع من زوايا مختلفة في علاقتها المتماثلة بتجربة كل المهاجرين الواعين بالترحال".

وأضاف "هي محاولة لمساءلة الأنا، فالبطل ترعرع في الدار البيضاء ويحطّ الرحال الآن في برلين كمحطة عابرة نحو السفر الكبير الذي ينتظرنا جميعا.. هي سفر بين الهنا وهنالك، بين بلد الأصل وبلد الاستقبال، إنها تنسج مقابلات بين المعيش المستحضر البيضاوي، والحاضر الحي الألماني لكنها تنسكب في مجرى يعانق فيه بعضها البعض لتلملم أشلاءها المتناثرة".

وتابع قائلا "الترحال بوابة للدخول في تصالح مع الآخر بغض النظر عن لونه أو لغته أو عرقه أو حتى ميوله الجنسية، قد نحوّر شيئا ما نظرية ماركس حول الاغتراب وأقول إن أبغض الاغتراب عند المرء هو اغترابه عن ذاته الذي يكون نتيجة لارتباطه بمحيطه الضيق".

محمد مسعاد: الترحال بوابة للتصالح مع الآخر

وفي أحد المقاطع يقول المؤلف على لسان "العربي" أحد شخوص محكياته "هجرة تسرّبت إلى الداخل كجذر ينبت في صمت، يدخل في عناق مع لغاتي المتعددة التي غرفت منها في المغرب. ألسنة متعددة ومختلفة، تتشكل أفقا عميقا في الذات، العربي منها والأمازيغي، المسلم واليهودي، الأندلسي وذلك الآتي من أفريقيا، مرة يأتي مسترسلا مكتوبا ومرة أخرى تتناقله المحكيات".

ويطرح مسعاد في كتابه سؤال الهوية من واقع تجربته الشخصية، قائلا "هذا السؤال الظالم في عالم يقال إنه أصبح قرية صغيرة. من يريد أن يبحث عن نفسه عليه البحث على الآخرين". وأضاف "هي محاولة للحفر في الهوية المتكسّرة أو الهويات المتعددة التي نحتمي بها ضد نفوسنا الأمارة بالسوء".

ومحمد مسعاد الذي يعمل صحافيا في قناة "دويتشه فيله" الألمانية جاء من عالم الشعر، حيث صدر له سابقا ديوان "زغب الأيام الراكدة"، كما خاض الترجمة من خلال اشتراكه في ترجمة كتاب "ظلم الأقوى" للأديب الألماني جونتر جراس الحائز على جائزة نوبل، وهو عبارة عن مجموعة مقالات وخطب.

وعن اختيار "نظارات الخائن" عنوانا للكتاب يسوق المؤلف رؤيته على لسان بطل المحكيات حين يقول إن الخيانة هي "تنشئة اجتماعية دائمة، سيرورة تعلمية مفتوحة، نخون اليوم ما تعلمناه واستكنا له البارحة".

ويتساءل "هل أنا مغربي؟ هل أنا ألماني؟"، فيجيب بلسان سابق "أنا مواطن عالمي، هاجرت مرة، وسأظل مهاجرا للأبد".

ورغم الحيرة الكامنة بين سطور محكياته، يقول مسعاد، إنه اختار اللغة العربية لسردها "لأنها اللغة الأقرب إليه".

وإذا كان أدب المهجر مألوفا منذ قرون مضت مع هجرة أبناء الشرق مثل جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة إلى شتى أصقاع الأرض فإن مسعاد يرى ثمة فروقا في هذا الأدب بين اليوم والأمس. وقال "سقوط جدار برلين، أنهى زمن التكتلات بالمعنى الاشتراكي، فالعالم يطبعه التشظي والتفتّت، وسؤال الوجود سيبقى خالدا للأبد".

> الكتاب يكشف عشق مؤلفه الأبدي لأزمنة وأماكن سكنها مقيما وسكنته في رحلة هجرة لعشرين سنة بألمانيا

وأضاف مستشهدا بشخصيات الأساطير الإغريقية "إذا كان بروميثوس يرفع راية التمرّد، فإن سيزيف يرفع راية الإصرار على التمرّد.. هكذا هي حياة الناس، فما بالك بالمثقفين، فتشظي العالم فرض معارك متشظية أيضا".

وكشف محمد مسعاد أنه يعمل حاليا على كتابة رواية جديدة تهتم بفضاء نسائي مغربي في دفع للقارئ صوب محاولة فهم لعلاقة المرأة بالمجتمع والمؤسسات، وفيها يتناول الصحافي المغربي إشكالات وجودية.